أسباب الثبات

أ.أناهيد بنت عيد السميري

ألقي يوم 30 من رمضان 1433

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة:

(عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ **منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.**
- ✓ **هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.**
- ✓ **الكمال لله–عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.**

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا بفضل الله ومنته لقاؤنا المتمم للثلاثين من لقاءات التفسير في هذا الشهر المبارك، أسأل الله

-عزَّ وجلَّ-كما تم لنا هذا الشهر أن يتمم علينا نعمه بالقبول وأن يجعلنا شاكرين مستغفرين ذاكرين مكبرين له-سبحانه وتعالى-.

فإن وظيفة العبد في هذه اللحظات تجتمع في ثلاثة أمور:

1. في الشكر على التوفيق للعمل الصالح.
2. وفي الاستغفار لتسديد النقص والضعف في الطاعات.
3. وفي تكبير الله-عزَّ وجلَّ-فهو أكبر من كل طاعة يقوم بها العبد، ومهما بذل العبد جهده فالله-عزَّ وجلَّ-حقه أكبر وأعظم، وهو الذي يُكبر ويُعظم لما هدانا إلى هذه العبادات، ويُكبر ويُعظم-سبحانه وتعالى-لما شرحه في صدورنا من الإيمان.

فنسأله-سبحانه وتعالى-أن نكون جمعنا هذه الخصال الثلاث، التكبير والاستغفار والشكر على نعمائه!

وها نحن نقف في نهاية هذه اللقاءات وقفات مع أمر في غاية من الأهمية لا بد من تداوله في مثل هذه الأيام، ولا بد أن يُطرح سواء كان كشعور نشعره أو كموضوع للبحث والنقاش بين الخلق وهو:

(موضوع الثبات)

كيف لي أن أثبت على هذه الأعمال التي وُفِّقت إليها؟ وكيف لي أن أستزيد فتزيد أيام حياتي ويزيد عملي الصالح؟ فهذا موضوع حقيق بالنقاش خصوصًا بعد انقضاء الشهر والتزود بالأعمال خوفًا من أن نكون مثل تلك التي نقضت غزلها!

فما طريق الثبات؟

ما أسبابه؟

ما الوسائل؟

ماذا أفعل من أجل أن أثبت؟

كل هذه أسئلة تصب في نفس الأمر:

ما الوسائل التي توصلني للثبات على الاستقامة؟

فنقول وبالله التوفيق: أن الذي يظهر والله أعلم أن أعظم أسباب الثبات هو الحرص على الثبات، الإحساس بأن هنا نعمة أخاف أن تذهب وأفقدها، فإذا بدأ الإنسان بهذه المشاعر ستنفعه أسباب الثبات، بمعنى أنه يمكن أن تُذكر أسباب كثيرة للثبات وهذه الأسباب معروفة، من المؤكد أنها مرَّت عليكم مرات ومرات، لكن لماذا أسمع الطرق والأسباب للثبات ولا أجد أثرًا؟

إذًا النقطة الأساسية للثبات في الدين هي: الشعور بقيمة الثبات.

لا بد أن تكون قلوبنا أولًا متحرقة للبقاء على هذا الطريق والزيادة منه، محبة للاستقامة، وهذا يلحق به أن نُذكر أنفسنا أن قلب ابن آدم أشد تقلُّبًا من القدر إذا اجتمعت غليانا!

وكما روى الإمام أحمد عن أبي موسى أنه قال: "إنما سمي القلب من تقلّبه، إن مثل القلب كمثل ريشة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهرا لبطن".

فهذا كله يدفعنا لحرارة الشعور بطلب الثبات، أي: يصبح الثبات مطلبًا، وتُوفق إلى أسبابه إذا كنت في غاية الحرص عليه، ومن سنَّة الله-عزَّ وجلَّ-أنه لا يعطي-خصوصًا أمور الدين-إلا لمن أقبل معتنيا بها!

وهذا الثبات من أفعال الله-عزَّ وجلَّ-لعباده، قال تعالى:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[1]

فإذًا الثبات فعل من أفعال الله، ولهذا كان دعاء من كانوا قبلنا:

- ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾[2]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾[3]
- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[4]

كل هذا دليل على أن الثبات من أفعال الله التي يهبها لمن يشاء وهي في مقام الهداية، فكما أن الله-عزَّ وجلَّ-يهدي من يشاء فهو-سبحانه وتعالى-يثبت من يشاء.

فإذا كان هذا الفعل من أفعاله، وهو-سبحانه وتعالى-لا يعطي هذه المنَّة العظيمة إلا لمن طلبها وبذل لها الجهد وتقرب إليه راغبا فيمن عنده، فزيادة الهداية وزيادة الإيمان وزيادة الثبات كل هذا يهبه الله-عزَّ وجلَّ-للصادق المقبل، فماذا نفعل من أجل أن نكون ممن يرزقهم الله الثبات؟

الكلام الذي مضى معناه أنك ستثبت على الدين إذا كان هذا من أهم اهتماماتك، لو كان هذا الذي يشغلك، فإن كنت تخرج من هذا الشهر والشاغل الذي يشغلك أن تثبت؛ فأبشر بخير، لكن هناك أفعال يجب أن نقوم بها لنصل إلى هذا الاهتمام، أي أن هذا الاهتمام يجب أن يعبر عنه بأفعال قلبية وأفعال بدنية.

---

(1) [سورة إبراهيم: 27]

(2) [سورة البقرة: 250]

(3) [سورة آل عمران: 147]

(4) [سورة آل عمران: 8]

نقول أولًا: ما معنى أن نثبت؟ ما معنى الثبات؟ هل هذا معناه الثبات على الأعمال؟ أي صيام النهار وقيام الليل؟ أم النتيجة على الصيام والقيام، والنتيجة هذه هل أنا حصلتها أم لا؟

كما هو معلوم أن الله شرع الصيام من أجل التقوى، والمعنى أن الله-عزَّ وجلَّ-في هذا الشهر فرض علينا فريضة الصيام ومن غاياتها أن ندرب أنفسنا على أن نلاحظ مراضي الله ومواطن سخطه، فنتقي السخط بطلب الرضا، بالقيام بالأعمال التي يحبها الله، ونراقبه بعمل قد لا يدركه أحد أبدا ولا يستطيع أن يكشفك، يمكن أن تفطر ولا يشعر بك أحد، فتعلم أن هذا الفعل فيه من السرائر ما فيه، فتدرب نفسك تمنعها عن الحلال، وتقول لنفسك: ليس كل ما اشتهيت فعلتِ، وليس كل ما يمر على خاطرك نفذت وخططتِ؛ فكأن التقوى هي عدم الاستجابة لكل ما يمر على الخاطر من شهوات، حتى لو كانت مباحة، لا تستجب.

لو كنت ستستجيب لكل مباح ترغبه نفسك ستنتهي الحياة ولم تشتَقْ إلى الجنة، ولم يشغلك يوم التغابن، ولم تعتنِ أن تكون ممن تقرب إلى الرحمن، والرحمن يزين كل يوم جنته في رمضان يقول:

((يُوشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ الْمُؤْنَةَ وَالأَذَى))[1] !

فتصبح هذه الجنة ليست على البال إن كان الإنسان ينفذ ويحقق كل ما تشتهيه نفسه من شهوة الطعام والشراب واللباس والكلام والخلطة، كل هذه أنواع من الشهوات في أصلها مباحة، تشتهي النفس أن تختلط بالخلق، أن تتكلم، أن تأكل، أن تلبس، أن تشتري...فالمفترض أن يأتي الصيام الذي من ورائه التقوى فيقلل رغبتك في الدنيا، فتكون النتيجة قوة رغبتك في الآخرة وقلة رغبتك في الدنيا.

تتعاطى الدنيا تعاطي المرتحل المسافر الذي يعلم أن هذه الدنيا كلها بلاغ، بلاغ! ((يُوشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ الْمُؤْنَةَ وَالأَذَى))، فالدنيا كلها في حقك بلاغ، فإذا كانت بلاغ لن تكون شاغلة لك إنما أنت تتبلغ بها إلى الآخرة، وقتها ستتقي ما يعيقك عن هذا السفر.

وعندما تذكر قوله تعالى في سورة الأحقاف وهو يخاطب نبيّه-صلى الله عليه وسلم-ويقول له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ إذًا نحن نحتاج من أجل أن نصل وننتهي من هذا السفر إلى الصبر! ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ يوم القيامة وانتهاء الحياة، كأنهم ماذا؟ ﴿لَمْ

(1) رواه أحمد في مسنده، وهو حديث ضعيف.

﴿يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ إلا ساعة! أي: كل الحياة ما كأنها إلا ساعة من نهار ﴿بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]

المعنى أن شعورك تجاه الحياة المفترض أن يتغير بعد الصيام، فتأتي التقوى التي مقصدها أن تتقي ما يشغلك عن الغاية، المسافر من أجل أن يصل لابد أن يجدّ في سيره ويتقي ما يشغله، ولو نظرت إلى غايات الطاعات ستجد أن التقوى هي الغاية، حتى في الحج، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ إلى أن قال-سبحانه وتعالى-: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[2] ، وهذا الخطاب منذ أن أنزل الله-عزَّ وجلَّ-آدم ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[3].

لن ينال الله-عزَّ وجلَّ-لحوم ولا دماء ما تذبحون وما تتقربون ولكن يناله التقوى منكم، وأهل الإيمان ليسوا مثل أهل الكفر، أهل الكفر في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية، والله-عزَّ وجلَّ-ألزم أهل الإيمان كلمة التقوى، فالمقصد أن هذه التقوى لو عُلمت وفُهمت كما ينبغي تستطيع أن تفهم ما هو الثبات.

الثبات إذًا هو أن تثبت على مشاعرك تجاه الدنيا، أي: إذا حصّلت التقوى وبدأت ولو خطوة فيها تطلب من الله-عزَّ وجلَّ-أن يثبتك في هذه المشاعر ويزيدها؛ لأن هذا هو المقصود من رمضان، أن تشعر أن الدنيا بلاغ يوصلك إلى الآخرة، وأن هنا في الدنيا وأنت ترى الشهر الذي انصرم كأنه ساعة من نهار، بل وعمرك الذي انصرم كأنه خيال، وهكذا سيأتي الناس يوم القيامة يرون أن كل الذي عاشوه ساعة من نهار، كان المفترض أن يتبلغوا من الدنيا إلى الآخرة ويتقوا ما يشغلهم عن هذا البلاغ، ما يشغلهم عما يوصلهم.

لو شعرت بالسفر وشعرت أنك فقط تتزود من أجل أن تصل وأنت سالم، ما كانت تشغلك الدنيا عن الاستعداد؛ ولهذا انظر المقارنة بين حالين، بين حال أهل الإجرام وحال أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[4]

يقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة في حياتهم، في مقابلهم:

---

(1) [سورة الأحقاف: 35]

(2) [سورة البقرة: 197]

(3) [سورة الأعراف: 26]

(4) [سورة الروم: 55]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[1]

لا عذر ولا عتاب؛ ولهذا في نفس السياق في سورة الروم، قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2].

أنت على يقين وعرفت حقيقة الدنيا ودربت نفسك على أن تمنعها عن كل ما تشتهيه زمنا، إذن تبين لك أن الله وهبك في نفسك القدرة على أن تمنعها، تستطيع أن تعيش مع أنك منعتها عما تهواه، فليس كلما اشتهيت اشتريت، وليس كلما جُعت أكلت، وليس كلما مر على خاطرك أن تفعل فعلت، إن هذه الصورة–صورة أن الإنسان يفعل كل ما مر على خاطره، وكلما اشتهى أن يتكلم تكلم، وكلما اشتهى أن يأكل أكل–صورة تخرج الإنسان من الكرامة، من كرامة ضبط النفس، صورة تخرج الإنسان من إرشاد العقل لهذه النفس الطلَّابة، ونفسك لو تركتها لن تمل من الطلب، لن تمل مما تعطيها، وكلما أعطيتها ستزيد! ألا ترى نفسك تنام وتنام وتنام وإذا استيقظت من النوم وجدت نفسك متعبا من النوم؟ ليس هذا ما تريد النفس، لا تتصور أن الذي يريح النفس هو أن تعطيها كل ما تريد.

على كل حال موضوع التقوى وتفاصيله لا يمل من نقاشه، والحرية الحقيقية أن تكون حرا من هواك لا تستعبدك نفسك كلما أرادت وطلبت وجدت نفسك ملبِّيًا لها، لا تتركك من إلحاحها حتى تعطيها ما تريده، إنما تصرف طاقاتك بعيدا عما تهواه نفسك، وسترى آثار هذا حين تلقى الله، سترى آثار هذا حين يخرج الناس من قبورهم، سترى هذا في إعانته في القبر وظلمته، وعلى الصراط وزلته، ويوم القيامة وكربته، سترى آثار هذا وقت الظلمة وقتما يضرب بسور له باب، سترى باطن الرحمة وغيرك ممن ترك لنفسه الهوى يكون في العذاب، نسأل الله–عزَّ وجلَّ–أن يجعلنا من أهل التقوى حقًّا وأن يلزمنا هذه الكلمة العظيمة وأن نكون من الثابتين.

على كل حال، المقصد هنا أن تعلم أن التقوى هي المقصد من رمضان فمن ثم ما هو الثبات؟ الثبات على هذا المقصد.

ألا تترك لنفسك العنان وتطلقها خصوصًا أن غالبنا ظروفه وأوضاعه وأحواله وعوائله وارتباطاته ستقلب عليه الحياة، ستقلب هذا السكون والهدوء والتقوى إلى شدة خلطة وإلى معركة في الظهور مع الخلق وإلى ملاحظة للناس، فيشتد على الإنسان البلاء، وهذا لا يعني أن الإنسان يقاطع الخلق،

(1) [سورة الروم: 56-57]

(2) [سورة الروم: 59-60]

المطلوب منك أن تنجح في الاختبارات لا أن تهرب منها، وإن كان بإمكانك أن تهرب من اختبارات الذي (لا يلزمك) فالحمد لله، الذي (لا يلزمك) لا تدخله، يكفيك ما أتاك من اختبارات.

كيف نثبت؟ كيف تستقر أمورنا فتبقى في قلوبنا آثار الصيام والقيام؟

الأمر الأول-والله أعلم-:

استشعار عظمة الله-عزَّ وجلَّ-

كنت تقرأ القرآن وتسمع فيه من صفات الله-عزَّ وجلَّ-ما تسمع، مر عليك أفعاله وصفاته وأسماؤه، مر عليك من شرعه ما يجعلك غاية في تعظيمه، مر عليك أنه-سبحانه وتعالى-خير الرازقين، مر عليك أنه خير الغافرين، هذا كله وغيره من صفات الله-عزَّ وجلَّ-يجعلك تستشعر عظمته وعظمة لقائه-سبحانه وتعالى-، وإذا تبيّن لك من القرآن ما له من كمال الصفات، وإذا كنت جامعًا قلبك وقتما خاطب نبيه موسى-عليه السلام-، لما قال موسى:

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[1]

كيف تتصور لقاء هذا الملك العظيم؟! حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه-سبحانه وتعالى-ما انتهى إليه بصره من خلقه! في حديث أنس وهو يتكلم عن آية موسى-عليه السلام-قال:

((فَسَاخَ الْجَبَلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾))[2] من آثار نوره-سبحانه وتعالى-!

إذًا عندما يمر عليك من الآيات في القرآن مثل قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[3]

كل هذه الصفات التي سمعتها في القرآن أنت بحاجة للتأمل فيها وإعادتها:

- فتفهم كلام يوسف-عليه السلام-لما كان يقول لأصحابه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[4]

---

(1) [سورة الأعراف: 143]

(2) "سنن الترمذي" (أَبْوَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ/ بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ الأَعْرَافِ/ 3074) قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ. وقال الألباني: صحيح.

(3) [سورة الزمر: 67]

(4) [سورة يوسف: 39]

- وتعلم أن الله-عزَّ وجلَّ-خير: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1]
- وتعلم أنه ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[2]
- وتعلم أن داره خير ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[3]
- وتعلم أن ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4]
- وتعلم أن الصبر خير: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[5]
- وتعلم أن الولاية لله-عزَّ وجلَّ-هي الولاية الحق، وهو-سبحانه وتعالى-المسؤول أن يقبل أعمالنا فيرفعنا فنكون من ذاك الفريق الذي هو ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[6]
- ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[7]
- ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[8]
- ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[9]
- وإن أصابك خير ما أصابك إلا منه.

كل هذا إذا قرأته في القرآن؛ كان الواجب عليك أن تعظّم الله، فإذا عظّمته وردّدت على نفسك صفاته-سبحانه وتعالى-، هذا سيثبتك على النتيجة التي من المفترض أن تكون بلغتها من رمضان.

لنفترض أن التقوى مئة خطوة، وأنت خطوت في رمضان هذا الخطوة الأولى، دخلت في باب التقوى في خطوة واحدة، استشعارك لعظمة الله-عزَّ وجلَّ-يثبت خطوتك هذه ويزيدها؛ لأنك في التقوى تقول لنفسك: يجب أن أتقي مساخط العظيم، تقول لنفسك: أنا سأشتري رضا العظيم وأبيع هوى نفسي، تدخل مع الله-عزَّ وجلَّ-في تجارة رابحة، لابد أنها رابحة!

---

(1) [سورة يوسف: 64]
(2) [سورة الأعراف: 87]
(3) [سورة النحل: 30]
(4) [سورة النحل: 95]
(5) [سورة النحل: 126]
(6) [سورة مريم: 73]
(7) [سورة طه: 73]
(8) [سورة طه: 131]
(9) [سورة الأنبياء: 89]

فكلما مرت عليك في القرآن كلمة (التجارة) وسمعت عن (الخاسرين) وسمعت عن (الرابحين) كان أثر ذلك أن تقول: نعم، أنا تاجرت مع الله، وتسأل نفسك: هل أنت حقا ترجو تجارة لن تبور؟ هل أنت من الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ تخاف يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار؟ هل أنت ممن سيستجيب لهذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] هل أنت من القوم الذين ربحت تجارتهم؟ هذا كله يدور حول استشعار عظمة الله والتجارة معه، إذا حصل هذا فها نحن نمر بالخطوة الأولى للبقاء في هذا الأمر العظيم، في البقاء في دائرة التقوى والثبات عليها.

الأمر الثاني:

الالتزام بالإحسان في الفرائض، وهذا سيسبب الإكثار من الأعمال الصالحة

المقصود بالفرائض ما فرضه الله-عزَّ وجلَّ-علينا من أعمال في حياتنا، وكما هو معلوم من أعظم الفرائض الصلاة، وليست هي الفريضة الوحيدة لكن المقصود أن هذه مما تتكرر في علاقتنا مع الله، وهناك فرائض في علاقتنا مع الخلق، ما هو المطلوب منا؟ المطلوب منا أن نعرف أن الإنسان إذا أحسن في فرائضه سيبلغ الحال التي ترضي الله-عزَّ وجلَّ-من جهة الثبات، قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾[2] معنى هذا أنك الآن وأنت تقبل على الشهر فكر في الإحسان في الفرائض، فكر في الإحسان في الأعمال الواجبة عليك، ومنها ترقى إلى ما بعد ذلك، أي: الآن صلواتنا هذه من أهم المقاييس في ثباتنا، أيضًا بقاء علاقتك بالقرآن لأن العبد لابد أن يسقي نفسه الإيمان، فالقرآن يزرع الإيمان ويزكي النفس ويرد الشبهات ويُبقي الإنسان على ذاكرة من التصورات الحقيقية للحياة، التصورات الصحيحة، يتصور الحياة بصورة صحيحة من القرآن.

فالمقصود أن الإنسان إذا علم أن من أسباب ثباته الإحسان في القيام بالفرائض زاده الإحسان هذا ثباتا، إذا علم هذا وتمسك به سيزيده ثباتا، ومن هنا يأتينا ما بعده، إذا أحسنا في الفرائض وقد فُتح علينا بالنوافل في هذا الشهر العظيم سيكون من أسباب الثبات الاستمرار على الأعمال الصالحة، قال رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل))[3] لن تكون بنفس

---

(1) [سورة الصف: 10]

(2) [سورة النساء:66-68]

(3) أخرجه البخاري (6464) واللفظ له، ومسلم (2818).

الكيفية ولا بنفس الهيئة لكن يبذل الإنسان جهده أن يستمر، وحتى تبذل بالنوافل عليك أن تكون في الفرائض كما ينبغي.

السبب الثالث وهذا سيخرج الموضوع منك إلى غيرك وهو:

أن تكون صحبتك على خير

بمعنى أنك ستفعل أفعالا من أجل أن تثبت ولكنك ستصاحب ضعفاء إيمان، وتصاحب قليلي انتفاع من رمضان يشغلونك ويكدرون عليك صفو ما بلغته من إيمان؛ فالحل هو أن تتخير من صحبتك من لا يشغلك وأن تتعامل مع من فُرض عليك التعامل معه بنوع من الحذر-بنوع من الحذر ليس بكراهية ولا بغض-ولكن بالحذر! فتحذر من إغرائه وتحبيبه لك الدنيا، واعلم أن من الأزواج والأولاد من هم عدو أُمِرنا بالحذر منهم، فكيف بالصحبة والزملاء.

إذًا نحن نستشعر عظمة الله ونعتني بالفرائض وهذا يلحقه الاعتناء بالنوافل والاعتناء بالقرآن وبالذكر، فتعتني بأذكار الصباح والمساء والنوم، تعتني أن تصلي نوافلك ولا تهملها، لأن مِن أن يحصل إهمال بالفرائض لابد أن يلحق ذلك إهمال بالنوافل! فابذل جهدك في فرائضك ويلحق ذلك النوافل، حزب لنفسك حزبا من القرآن تقرأه مهما كانت أوضاعك ثم اعلم أن الذي يعينك على ذلك الصحبة الصالحة، تخير ما استطعت من الأصحاب.

نأتي إلى أمر آخر فنقول من أسباب الثبات:

مُلاحظة نقاط ضعف النفس

كل واحد منا له نقطة ضعف، بمعنى: أن هناك أقوام نقطة ضعفهم مثلا اللباس، منه تدخل عليهم الدنيا، هناك أقوام نقطة ضعفهم الطعام، وأقوام نقطة ضعفهم أصحابهم وهكذا، فأنت الآن فتش ما هي نقطة ضعفك؟ نقطة الضعف هذه هي التي تجيش جيوش الإيمان من أجل أن تتقي فيها!

مهما كلمك الخلق اتركهم؛ يعني أنت الآن مثلا مشكلتك الكلام، شهوتك أن تتكلم وتتكلم، يثيرك الناس حولك من أجل أن تتكلم وأنت تستجيب لهم، فإن خرجت من رمضان فعليك أن تتقي ولا يكون ديدنك كثرة الكلام، فتخرج إلى مجتمع فتجد نفسك ستتكلم، هنا جيّش جيوش الإيمان في قلبك وكلم نفسك وخاطبها: احذري ستقولين كلمة تندمين عليها، عاهدت الله ألا تضعفين، عاهدت الله ألا تغتابين...إلى آخره، تقول لنفسك كلاما تجيش به جيوش الإيمان في نفسك، فيندفع عنك عدوك!

واعلم أن الثبات في مثل هذه المواقف سيكون انتصارا ينصرك الله فيه خصوصًا لو أكثرت من ذكره؛ فالله-عزَّ وجلَّ-جعل ذكره من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد، في جهاد البدن، ومنه في جهاد النفس.

أنت الآن عرفت نقطة ضعفك فحين تواجهها-تجد نفسك أمام نقطة الضعف-أكْثِر من ذكر الله، لأن الذكر يقويك ويجاوزك نقطة الضعف هذه، ويُخرج نقطة الضعف التي عندك من قلبك، يُخرج هذا الهوى من نفسك وهذا مقصد التقوى، وهذا هو مقصد الصيام، وهذا مدح المتقين، أن شهوات تمكنت من نفوسهم، فاتقوا الله أن يخرجوها من نفوسهم فأخرجها الله-عزَّ وجلَّ-من نفوسهم لما حصل لهم من اجتهاد وذكر لله-عزَّ وجلَّ-.

يأتي أخيرًا في نقاشنا هذا اليوم الكلام عن سبب عظيم من أسباب الثبات التي يجب ألا ينفك عنك هذا السبب، وقد كان النبي-صلى الله عليه وسلم-يفعله في حياته عليه الصلاة والسلام ونقل عنه أنه يكثر منه، ألا وهو:

الدعاء!

(يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) ، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾

كثرة الدعاء لهذا الأمر دليل على أنك تخاف من عدم الثبات، دليل على أنك مهتم، ونحن نعلم أن من سنَّة الله أن من اعتنى بأمر وهبه الله إياه لو كان صادقًا، ونسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن نكون صادقين في إرادة الثبات والاستقامة، وأن تكون ألسنتنا مع قلوبنا متوافقة في هذا الدعاء وفي غيره:

((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))[1].

لو شعرت بخطورة انزلاق القدم وبخطورة الانتكاسة وبخطورة الانسلاخ من الدين وبخطورة نقض الغزل بعد تمامه، لو شعرت بهذا كله سيكون هذا الدعاء جاريًا على لسانك لا تتركه! ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) .

أسأل الله-عزَّ وجلَّ-بمنه وكرمه كما يسر لنا اللقاءات في هذا الشهر المبارك ونفعنا بهذه الوسائل التي وهبها الخلق، أسأله كما يسر أن يتقبل، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا

(1) رواه أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، وصححه الألباني.

ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، ولا يجعل آخر عهدنا بالعلم وبالذكر وبالصيام والقيام هذا الشهر، وأن يجعلنا ممن يُقبل على القرآن فيكون هو حياته ويكون هو الشفيع له يوم القيامة.

أسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يوفقنا لخدمة دينه، لهذا الشرف العظيم، وأن يفتح أبوابا للعلم ويحبب الناس ويشرح صدورهم له، وأن يوفقنا لنشر العناية بأسمائه وصفاته وأفعاله وعظمته، وحقوقه وحقوق نبيه وحقوق دينه، اللهم آمين.

تم بحمد الله